طبقات الأطباء بالمغرب الأقصى

بقلم عبد العزيز بنعبد الله

ازدهر الطب في المغرب الاقصى منذ عهد المرابطين بفضل حركة التبادل الثقافي التي تبلورت بين المغرب والاندلس طوال ثلاثة قرون عندما كان بلاط مراكش وفاس يشرف على العدوتين وقد بدأ المغرب يتلقى المدد الفكري من الاندلس العربية منذ عهد عبد الرحمن الناصر ولم تتسع شبكة تبادل العلماء ورجال الفكر الا بعد انتصار يوسف بن تاشفين في وقعة الزلاقة .

ولهذا أدرجنا في طبقات أطباء المغرب علماء اندلسيين لما كان لهم من أثر في بلورة الحركة الفكرية الطلائعية في المغرب الاقصى .

ان القرن الرابع الهجري يعد من أنصع القرون في اسبانيا العربية سواء من حيث دراسة الفنون أم من حيث المؤسسات والمخترعات العلمية .

فاذا كان هذا القرن هو أدون من حيث علماؤه من القرنين الخامس والسادس الهجريين فان علماء هذين القرنين انما فاقوهم بفضل ما ابتدعوه من مؤسسات ومكاتب ومدارس فأولئك بذروا وهؤلاء حصدوا وفي هذا العصر كان الحماس العلمي يتأجج حول مسلمة المجريطي الذي عاش بقرطبة .

وفي هذا الابان كذلك برز ابن جلجل كأعظم طبيب طبائعي في عصره حيث عرب مفردات ديسقوريدس وزاد عليها الادوية المعروفة عند العرب والتي جهلها ديسقوريدس (I) وقد كتب ابن جلجل ايضا تاريخا للاطباء والحكماء الذين قبله في الاندلس .

والوليد المدحجي الطبيب قد دخل الاندلس مع عبد الرحمن بن معاوية وكان طبيبه أخذ عنه ابنه ابراهيم .

واسحاق بن عمران هو الذي أدخل الطب الى المغرب وكذلك ابن الجزار صاحب زاد المسافر وقوت الحاضر وهو أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد المتوفى عام 390 هـ (1004 م) ويوجد الجزء الاول من هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بالرباط كما يوجد في نفس المكتبة مختصر كتاب الاعتماد في الادوية المفردة لابن الجزار مرتبا على الحروف وصاحب المختصر غير مذكور .

وقد ألف عبد الملك بن حبيب السلمي المرداسي القرطبي المتوفى عام 237 هـ مختصرا في الطب توجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة الوطنية بالرباط .

ووجه الامبراطور الروماني الى عبد الرحمن الناصر الاموي هدايا من بينها نسخة من دسقوريدس باليونانية مع صور ملونة للنباتات فطلب الناصر من الامبراطور أن يوجه اليه رجلا يعرف اليونانية واللاتينية فبعث بالراهب نيكولا عام 901 م وكان في قرطبة أطباء منهم حسداي وأبو عثمان الجزار ومحمد بن سعيد وأبو عبد الله الصقلي (الذي كان يتكلم بالاغريقية) وعبد الرحمن بن هيثم توصلوا الى معرفة جميع الادوية

(I) توجد في اسطامبول نسختان من كتاب الحشائش لديسقوريدس رسمت في أولهما صورة المؤلف اليوناني وقد أشار بوشتال وكورز الى نسخة من هذا القبيل انتسخت في بغداد عام 637هـ (ميلانج (مختلط) لوي ماسينيون ج 2 ص 93).

المفردة (2) المذكورة فى ديسقوريدس باستثناء عشرة منها وقد تعاطى ابن جلجل لتاريخ العلـــوم الطبيعية الطبية . واكمل كتاب ديسقوريدس بعد اتصاله بالراهب نيكولا (لوكلير ج I ص 420) .

ومما يدل على أهمية أطباء الاندلس فى القرن الرابع أن محمد بن عبدون القرطبى دخل مصر والبصرة وعنى بعلم الطب ودير مارستان مصر ثم رجـع الى الاندلس سنة 360 وقد ذكر صاعد «انه تمهر فى الطب ونبـغ فيه وأحكم كثيرا من أصوله ولم يكن يلحقه أحد بقرطبة فى صناعة الطب ولا يجاريه فى ضبطها وحسن درايته فيها واحكامه لغوامضها» (النفح ج I ص 444) .

وأبرز طبيب عربى ظهـــر فى الاندلس فى القـرن الرابع هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى صاحب كتاب « التعريف لمن عجز عـن التأليف » وقـد قـال فيه أحد الجراحين الغربيين : « لا شك أن الزهراوى أعظم طبيب فى الجراحة العربية وقد اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفى الجراحة فى القرون الوسطى وكتابه هو اللبنة الاولى فى هذا الفن وهـــو أول مـــن ربط الشرايـــين ووصف عمليـــة تفتيت حصـــاة المتـانة واستخراجها بعملية جراحية وعالج الشلل وأول مـن استعمل خيوط الحرير فى العمليات الجراحية .

وذكر لوكلير فى تاريخ الطب من جهته ان الزهراوى أعظم ممثل لعلم الجراحـــة فى المدرسة العربية (ج I ص 334) .

والظاهرة الطريفة التى امتاز بها كتاب التعريـــف للزهراوى هو ادراجه بازاء النصوص لصور الآلات والا فان كتابه فى التشريـــح مقتبس ـ حسب الدكتـور لوكلير ـ من الكتاب السادس لبولس دوجين ولكنـه كان مع ذلك جراحا ممتازا ووضع فى أول كتابه معرفة علم التشريح كأساس للجراحة (ج I ص 455) فكتابه هو أول تعبير للجراحة كعلم (ص 456) وقد طبع كتاب الزهراوى فى الهند بصوره (3) وكثير من كتب الطب تحتوى على صور حيث يوجد مجموع فى العين بالخزانة التيمورية كتب عام 592 من محتوياته تذكرة الكحالـين لعلى بن عيسى الموصلى بها دوائر ورسوم للعين وكتاب فى علل العيون وعلاجها لحنين بن اسحاق بـــه صور للعين ملونة وقد ترجم هذا الكتـــاب للالمانية الاستاذ مايرهوف الكحال الشهير .

ويظهر أن الزهراوى مات بعد الاربعمائة كمـا عند حاجى خليفة وكذلك عند الحسن الوزان الـذى أرخ وفاته بـ 404 موافق 1013 وقد وهم كازيرى الذى أكد فى المجلد الاول مـــن فهرسته (ص 137) أن المؤرخين الاسبان مجمعون على أن عام 500 هـــو تاريخ وفـاته (لوكلير ج I ص 437) .

أما فى خصوص المستشفيات بالاندلس فقد ذكـــر لوكلير انه لم تصله معلومات فى شأنها اللهم الا مـــا كان من الاشارة الى مستشفى بالجزيرة الخضراء (ج I ص 571) ولكن يوجـــد فى الاسكوريال مخطوط سجلت فيه استشارات طبيب فى منزله ووهم كازيرى فظنـــه كتاب امتحانات للمرشحين للطب .

وذكر العلامة الامريكى فكتور روبنصن أنه كـــان فى طليطلة وحدها ما يزيد على اربعمائة مستشفى (؟)

أما فى المغرب الاقصى فمـــن الصعب تأكيد ابـان ابتداء الازدهار الا أن الدكتور لوكلير أكـــد أن الطب ازدهر فى هذه الربوع خلال القـــرن العاشر الميـلادى (الرابع الهجرى) ازدهـــارا عابرا مـــع الاسف (ج I ص 334) .

ثم تحدث فى موضع آخر عن أطباء المغـرب فلاحظ أن المغرب هو أشد أقطار الاسلام عمقـــا من الناحيـة العلمية (ج I ص 407) .

---

(2) من جملة من صنف في الاودية المفردة الوزير أبوالمطرف عبد الرحمن بن شهيد وهو آية في الطب عانى جميع ما في كتابه من الادوية المفردة وعرف ترتيب قواها ودرجاتها وكان لا يرى التداوي بالادوية ما أمكن بالاغذية أو ما يقرب منها واذا اضطر الى الادوية فلا يرى التداوي بالمكبة ما وجد سبيلا الى المفردة واذا اضطر الى المركب لم يكثر التركيب بل يقتصر على أقل ما يتمكنه وله غرائب مشهورة في الابراء من الامراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه (النفح ج 2 ص 874) .

(3) يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع عدد 1427 د بعد المقالة الثامنة من كتاب التعريف للزهراوي مقالة تحتوى على 28 صورة لحدائد الكي ومالات العمل وهـذه المكاوي الدقيقة الصنـع تختلف حسب العضو المريض من الرأس الى الاذن والفك والعين داخلا وباطنـا والاضراس والمعدة والكبد والطحال والقدم والساق والتآليـل والرحم والمثانة الخ .

ومع ذلك فقد كان في المغارب الثلاثة أطباء مهرة في هذا العصر يدل على ذلك ما رواه القفطي من ان المعز الفاطمي قد رافقه الى مصر أطباء من أرض المغرب (أخبار العلماء باخبار الحكماء ص 75)

وقد اشتهر قسطنطين التونسي في القرن الرابع كطبيب ترجم عشرات الكتب الى اللاتينية .

وقد عرف البرابرة منذ عهود سحيقة حقن جرائهم الجدرى وكانوا يستعملونه لتحصين المصاب (كودار وصف المغرب وتاريخه ج I ص 239) .

ونقل الكانوني في «شهيرات المغرب» (مخطوط) عن كتاب «فن الاسنان بالمغرب الاقصى» أنه كان بفاس في القرن الرابع الهجرى مدرسة طبية وذلك أيام كان المغرب تحت نفوذ الامويين .

والواقع أن الطب لم يزدهر حقيقة بالمغرب الاقصى الا منذ القرن الخامس يشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد (الذى هو أعظم فيلسوف انجبته الاندلس) وبنى زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون واعظمهم هو ابو مروان عبد الملك الذى يعتبره بعض المؤرخين أكبر طبيب تخرج من المدرسة العربية يضاف الى هؤلاء الغافقي وأبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الدانى اللذان ألفا فى تاريخ الطب الطبيعى .

والغافقي هذا هو أبو جعفر أحمد بن محمد وهو غير محمد بن قسوم الغافقي صاحب المرشد في طب العيون ويوجد كتاب الاعشاب للغافقي في دار الآثار العربية وهو يحتوى على 380 رسما ملونا لنبات وثقاقير وحيوانات متقنة الرسم .

وممن نبغ بالاندلس في هذا العصر ابن العوام مؤلف « كتاب الفلاحة » الذى لا يوجد له نظير في الادب العربى لما يحتوى عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة ثمينة (لوكلير ج 2 ص II) بل هو أعظم ما أنتجه لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة (ص IIO) .

وابن العوام هذا هو أبو زكرياء يحيى بن محمد الذى لا نعرفه الا من خلال مصنفاته ويرى كازيرى أنه عاش فى القرن السادس الهجرى . (4)

زد على هؤلاء الشريف الادريسى السبتى وقد جاء فى رسائل البشرى أنه اشتهر فى فنون الهيئة والجغرافية والفلسفة والطب والنجوم وقرض الشعر وطاف بمصر وآسيا الصغرى والقسيطنطينية والاندلس وفرنسا وانجلترا ووصف نباتات كل قطر (الاعلام للمراكشى ج 3 ص 34) .

وأصبحت هذه المصنفات أساسا دراسيا لرجال القرن المقبل أمثال ابن البيطار (5) المالقى واستاذه أبى العباس النبطى وهما أعظم العلماء النباتيين العرب الذين وصلتنا مؤلفاتهم ولم ينجب الشرق فى هذه الاثناء من أعاظم الرجال سوى فخر الدين الرازى فاستطاع الاندلس بفضل شبكة علمائه أن يحمل راية الفلسفة والطب فى العالم الاسلامى (لوكلير 2 ص 72) .

على أن أبا عبيد البكرى صاحب المسالك قد خلف كتابا حول أعشاب الاندلس واشجارها ينقل عنه ابن البيطار وقد وصف فى مسالكه بعض الظواهر الغريبة من تاريخ علم الطبيعة كالاعشاب المسهلة والاشجار (اركان) التى أشار الى وجودها فى طريق اغمات الى فاس .

وبفضل الانبعاث فى الاندلس صارت أوربا تنفض عنها اردية الركود وأصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم وقد استنجد ريموند أسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتينى واذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية ثم ورد جيراردو كريمون على طليطلة حيث استقر نحوا من نصف قرن نقل خلالها من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا أو اغريقيا معربا .

وقد بدأت حركة الترجمة فى افريقيا منذ القرن الرابع فهذا قسطنطين التونسى الصقلى قد أسس مدرسة سالرنة وهى أول مدرسة من نوعها فى أوربا

---

(4) ذكر رسكا Ruska في دائرة المعارف الاسلامية (ج ا ص 245) أنه عاش حوالي نهاية القرن الثاني عشر الميلادي . وذكر Huart أنه صنف كتابه في النصف الاول من القرن السادس الهجري (الاعلام للزركلي ج9 ص208)

(5) ابن البيطار توفي عام 646 (نفح الطيب ج2 ص874)

كتابخانه ومركز اطلاع رسانى
بنياد دايرة المعارف اسلامى

وكانت مبعث أنوار الطب الحديث ولد حوالى عام 400 بتونس وحمل مخطوطات طبية الى سالرنة بقيت غذاء أوربا عدة قرون وترجم الى اللاتينية أهم كتب الطب العربى منها زاد المسافر لابن الجزار وكتب للرازى واسحاق بن سليمان الاسرائيلى وألف نحوا من 24 كتابا فى الطب منها **قانون الطب فى 12 مجلدا وفياتيكوم فى الطب العام** فى سبعة أجزاء ومات عام 475 .

ولكن لم يكد يمضى العقد الاول من القرن السابع (أى بعد غزوة العقاب التى انهزم فيها الموحدون عام 609 هـ « وكانت السبب فى هلاك الاندلس » كما يقول ابن عذارى) (ج 4 ص 240) حتى بدأ صرح العلم ينهار وطمست الاضطرابات ذلك الرواء الذى تألق نجمه منذ عهد الناصر الاموى طوال ثلاثة قرون .

نعم فى العهد الذى كانت الاندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت ـ كما يقول لوكلير ـ (ج 2 ص 240) جماعة من الاطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم فى ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم فى العلاج وتدريس الطب ـ فأفاد المغرب كثيرا من نكبة الاندلس .

ويظهر أن علوم الحكمة تقلص ظلها مؤقتا فى عهد المنصور عندما حورب الفلاسفة حتى اضطر ابن رشد نفسه الى التخلى عن الخوض فى ذلك والمنصور هذا وان كان لم يقصد اضطهاد رجال الطب حيث أناط بابن زهر نفسه مأمورية تعقب الفلاسفة ثقة به الا أنه عمد الى تدوين الاحاديث وترتيب الجرايات لحفظها فاتجه الناس اليها انجذابا للمادة فقل المعتنون بالحكمة والطب على أن اعتقال المنصور لابن رشد وأبى جعفر الذهبى زاد الناس رببة فى مصير الفلاسفة والاطباء .

ولعل المنصور شعر بخطورة هذه التدابير فأعاد الحظوة الى الرجلين وكلف أبا جعفر بالسهر على مصالح الاطباء وطلبة الطب وتلك من المنصور محاولة لا بأس بها لتنظيم المهنة الطبية .

وقد أكد الدكتور رينو أن المغرب لم يقم على وجه العموم بدور يذكر فى العصر الذى كان الطب وبقية العلوم يتألق نورها فى سوريا والعراق ومصر وحتى فى اسبانيا المجاورة ولكن منذ أواخر القرن الحادى عشر وخاصة الثانى عشر أبرز عصور اسبانيا المسلمة امتزج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين ثم يقول رينو :

« فكيف اذن يمكن أن نفصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين انجبتهم الاندلس أو الذين تكونوا فى مدارسها ثم ساروا فى أعقاب ملوك المغرب من اشبيلية او قرطبة الى فاس أو مراكش أو اغمات فللمغرب الحق اذن أن يتبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد الخ (الطب القديم بالمغرب نشرة معهد الدروس العليا عدد 1 ص 72) .

ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب أندلسى ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين وقد كان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية .

وقد ذكر المراكشى فى المعجب ان المعتمد استدعى أبا العلاء لمعالجة الرميكية عندما كان اسيرا باغمات .

ووالد أبى العلاء هو أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر محمد بن مروان بن زهر الذى تولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان (النفح ج 1 ص 445) .

وكانت له آراء شاذة فى الطب منها منعه من الحمام اعتقادا منه أنه يعفن الاجسام ويفسد تركيب الامزجة (عيون الانباء فى طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة) ج 2 ص 64ـ66) .

وقد تمخضت تجارب أبى العلاء فى المغرب عن تأليفه لكتاب « التذكرة » (الذى ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة فى مراكش والادوية المناسبة .

وبعد ما توفى أبو العلاء أمر على بن يوسف بجمع ملاحظات طبية أخرى كان ابو العلاء سجلها فى أوراق وهى « المجربات » التى جمعت بمراكش عام 526 هـ والتى يوجد مخطوط منها فى الاسكوريال (رقم 844) .

وقد ترجم جان دوكابو التذكرة من العبرانية الى اللاتينية (نسخة فى مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام 1280 والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و 1554) .

وتوجد الآن نسخة فى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريز يرجع تاريخ طبعها الى 1531 وهى تحتوى على كليات ابن رشد .

وهنالك رسالة فى أمراض الكلى كتبها أبو العلاء لعلى ابن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 كما يوجد مخطوط له حول الخواص بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات.

ولابى العلاء مقالة فى شرح رسالة يعقوب بن اسحاق الكندى حول تركيب الادوية .

وتوجد نسخة من «جامع أسرار الطب» لابى العلاء فى المكتبة الوطنية بالرباط وهى تحتوى على 185 ورقة.

وولده هو أبو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل أبيه وألف كتاب الاقتصاد لابراهيم بن يوسف أخى على (يوجد منه مخطوط بباريس رقم 2959) وكذلك نسخة فى الاسكوريال حسب رينو محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من الكتاب عام 515 هـ وهو - كما يقول المؤلف - عبارة عن تذكرة لمن سبق له أن قرأ كتبا أخرى فى الطب فالمؤلف لا يتكلم مع العموم ولكن مع طبيب مثله وقد أوضح بكيفية عملية الفرق بين الجذام والبهق ومسألة العدوى بل أفرد لذلك رسالة لم تصلنا ويذكرون أن ابن زهر هذا أعظم من ابن سينا ولا يعد له سوى الرازى فى الشرق .

وقد تحدث ابن زهر فى هذا الكتاب عن اطباء عصره فذكر انهم يختلفون فى الاعتناء بالمرضى وأن الناس يجهلون الطب لان الطبيب الذى يستشيره مريض من المرضى يبادر فيصف له دواء من الادوية دون تمحيص للحالة فى جميع خواصها ثم ذكر انه استدعى يوما من الايام لدى أمير مرابطى فوجد جماعة من الاطباء شبابا وشيوخا لم يسبق له أن تذاكر معهم ولكنه تأثر بتجربتهم فجرت المذاكرة حول الداء الذى يشكو منه الامير فبادر الاطباء الحاضرون ووصف كل منهم دواء فلم يوفق فى نظر ابن زهر سوى واحد منهم ومع ذلك لم يستكنه سبب الداء ومما امتاز به وخالف فيه أطباء عصره الاقدمين أنه كان يستعمل الفصد للشيوخ من سبعين سنة فأقل وللاطفال كذلك حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فأدهش معاصريه وكان والده أبو العلاء يوصى ببطيخ فلسطين أى الدلاع فى عرف المغاربة فى أمراض الكبد ويعالج بجس النبض والنظر الى قوارير البول .

وقد قرأ أبو الحكم ابن غلندو الاشبيلى الشاعر على أبى مروان ابن زهر عام 535 كتاب الاقتصاد فى سجن مراكش حيث مكث ابن زهر نحو العشر سنين .

والمنصور هو الذى استقدمه للمرة الثانية الى مراكش عام 580 حيث مات فى السنة التالية .

وقد سبق لعبد المومن أن اختصه لنفسه وعول عليه فى الطب وله ألف الترياق السبعينى وأنبت كرمة عنب كان يسقيها من ماء مسهل لكراهية عبد المومن لشرب المسهلات فصار يعطيه من ثمارها وقد ألف كذلك كتاب الاغذية (ابن أبى أصيبعة ج 2 ص 66) .

وكتاب التيسير قد كتبه أبو مروان بن زهر بطلب من ابن رشد كتذييل لكتابه الكليات .

وقد ذكر ابن زهر فى آخر كتابه أن الشخص الذى كلف بمراقبته فى التأليف لم يرقه الكتاب لانه يخالف التعليمات الصادرة اليه ولان فهمه يعسر على من ليس عنده مسكة من الطب لذلك الحق ابن زهر « الجامع » بآخر الكتاب فهل عبد المومن هو الذى أمره بتصنيفه ؟ ويظهر من تحليل لوكلير لكليات ابن رشد المترجمة الى اللاتينية أن ابن رشد ينقل عن تيسير ابن زهر .

وقد أكد ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة أن ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره .

وتعرض ابن سعيد فى الرسالة التى ذيل بها رسالة ابن حزم فى فضل علماء الاندلس - لعبد الملك بن أبى العلاء بن زهر فذكر أن كتاب التيسير مشهور بأيدى الناس بالمغرب وقد سار ايضا فى المشرق لنبله (النفح ج 2 ص 778) .

وتوجد بالمكتبة الوطنية بباريز مجموعة تحت عدد 2960 تحتوى على كتابى الاغذية والتيسير لابن زهر و « التذكرة » لابى العلاء ورسالة فى الادوية .

وقد نهج ابن زهر فى كتاب التيسير أسلوبا جديدا فى الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلى للوصول الى أحسن النتائج فهو طبيب التجربة والتمحيص العلمى وليس من صناع اليد كما يقول فى «التيسير» أما فى الميدان العملى فقد لاحظ ابن زهر أنه يأنف من اجراء العمليات الجراحية الكبرى بنفسه لان رؤيته الجروح تثير فى نفسه ضعفا يوشك أن يسفر عن اغماء لكنه لا يكره تحضير الادوية غير مستعمل الخمر

فى تركيبها على سنن والده أبى العلاء حتى لو أوصى بذلك جالينوس على خلاف الرازى .

وتحدث عن الاعمال اليومية فى الطب فلاحظ أنها موكولة لاعوان الطبيب مثل الفصد والكى وفتح الشرايين أما مهمة الطبيب فهى تقرير نظام الاكل عند المريض ووصف الادوية فهو لا يتناول شيئا بيده ولا يركب دواء وحكى ان والده لم يباشر شيئا من هذا القبيل بيده طوال حياته وحتى لو أراد ذلك لما وفق لعدم الاستئناس وتحدث عبد الملك عن نفسه فذكر أنه كان هو نفسه ولوعا بالمباشرة اليدوية فى الصيدلة وتجربة الادوية والتوصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية الى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالامراض الرئوية واجريت له عملية فى القصبة المؤدية الى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة فى مرض الذبحة فعولج المريض .

وقد اختص ابن زهر فى أمراض الجهاز الهضمى واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعمل الحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة الجرب كما بسط طرق العلاج القديمة وأوضح ان الطبيعة ـ اذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشرى ـ تكفى وحدها فى الغالب لعلاج الادواء (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 530 من الطبعة الفرنسية) .

وكان أبو مروان اذا عالج مريضا نسى نفسه واستهلك فى مريضه وهذا هو سر عبقريته فاذا عرضت عليه حالة شائكة حاول أن يعيشها واستمد من ذكرياته وتجاربه ومنطقه ولهذا كان نسيج وحده وانكب أطباء القرون الوسطى على دراسة كتابه التيسير الذى ترجم أولا الى العبرانية من طرف شخص مجهول (مخطوط بمكتبة ليد) ثم الى الايطالية عام 1260 .

وقد تحدث ابن زهر فى كتاب التيسير عن يمين ابقراط الذى كان يطالب بها جميع من يدرس مصنفاته ويقتضى منهم الزام تلاميذهم بها وقد ذكر ابن زهر أن والده أبا العلاء تلقى اليمين منه عندما كان لا يزال طفلا لدى ابتدائه دراسة الطب وحكى أن أحد الثوار طلب منه سما فأبى معرضا نفسه للخطر ثم سقط هذا الثائر مريضا وبدلا من أن يقضى الطبيب عليه عالجه باخلاص طبقا لمبادىء ابقراط .

وقد وهم كودار فزعم فى كتابه حول تاريخ المغرب (ص 452) ان أبا مروان ابن زهر يهودى ثم أكد أن أبا زهر استعاض بالمنهج التجريبى والطريقة العقلية عن التقليد فى ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهى الصيدلة والجراحة والطب العام .

والحفيد أبو بكر بن أبى مروان كان طبيبا شاعرا متين الدين خدم الدولتين اللمتونية والموحدية (عبد المومن ويوسف ويعقوب والناصر) توفى عام 596 هـ بمراكش ألف الترياق الخمسينى ليعقوب المنصور ودس اليه ابن يوجان وزير المنصور السم هو وابنة أخته وكانت هى وامها عالمتين بالطب لا سيما فى أمراض النساء وتدخلان الى نساء المنصور (ابن أبى أصيبعة ص 67) وكان أبو بكر يحفظ صحيح البخارى بأسانيده (الانيس المطرب ج 2 ص 180) ولم يكن فى زمانه أعلم منه باللغة وكان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب (المطرب لابن دحية) .

وولده عبد الله بن الحفيد خدم الناصر بن المنصور وكان عالما بأسرار الصناعة وتوفى مسموما فى رباط الفتح عام 602 هـ ودفن بها وهو ابن 25 سنة (ابن ابى أصيبعة ص 74) .

أما أبو بكر بن يحيى ابن الصائغ المعروف بابن باجة فهو شيخ ابن رشد المتوفى بفاس (ابن أبى اصيبعة ج 2 ص 63) وقد استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وكان يشارك الاطباء فى صناعتهم فحسدوه وقتلوه مسموما عام 533 هـ (القفطى ص 265).

وقد زعم مونك أن ابن رشد لم يتتلمذ لابن باجة الذى مات عام 525ـ1138 هـ (4) اى عندما كان لابن رشد 12 سنة وابن أبى أصيبعة كتب تاريخه بعد وفاة ابن رشد بأربعين سنة (مزيج من الفلسفة اليهودية والعربية ص 420) .

كما خطأ عمر فروخ فى كتابه « ابن طفيل وقصة

(4) ويذكرون أن وفاته كانت سنة 533هـ بفاس فيكون قد أتيح بذلك لابن رشد أن يتتلمذ له .

حي بن يقظان » (ص 31) «المراكشي» « حينما زعم أن ابن طفيل قرأ على ابن باجة» .

وقد اضطرب الفتح بن خاقان في ابن باجة حيث نسبه في القلائد للتعطيل وانحلال العقيدة وحلاه في « مطمح الانفس في ذكر رجال الاندلس » بالخير والدين والاستقامة (السلوة ج 3 ص 262) .

ولم يصلنا شيء من المؤلفات الطبية المنسوبة لابن باجة ولا يعرف الا عن طريق ابن البيطار الذي يقتبس منها في جامع المفردات .

ومن تلامذة ابن باجة أبو الحسن سفيان الاندلسي المتوفى عام 537 الذي كان أحد أطباء علي بن يوسف وتعاون مع شيخه ابن باجة في تأليف كتاب التجربتين (لوكلير « تاريخ الطب العربي » ج 2 ص 79) ولعله هو الذي أشار اليه ابن زهر في كتابه «التيسير» حيث ذكر ان علي بن يوسف استقدمه من الاندلس في مرضه الذي توفي منه وقد ذكروا ان سفيان هذا مات في نفس العام اي بعد وفاة ابن باجة بأربع سنوات .

ومن الاطباء الذين نبغوا في هذا العصر : أبو جعفر ابن هارون الترجالي طبيب يوسف وهو تلميذ المعافري في الحديث وشيخ ابن رشد في التعاليم والطب وكان عالما بصناعة الكحل (طب العيون) (ابن أبي اصيبعة ج 2 ص 75) .

وذكر ابن عذارى في البيان المغرب (ج 4 ص 49) ان الخليفة ابا يعقوب اعتل عام 573 فوفدت عليه الاطباء من الاندلس للمعالجة الى أن وجد الراحة .

وذكر أيضا أن أبا يعقوب لما جرح في الغزوة التي مات اثرها بالاندلس كان الاطباء الحاضرون لديه هم ابن زهر وابن مقبل وابن قاسم (ج 4 ص 70) .

وذكر صاحب الانيس المطرب من اطباء يوسف بن عبد المومن الوزير أبا مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي زيادة على ابن طفيل وابن رشد وابن زهر (ج 2 ص 176) .

وكان الطبيب سعيد الغساري بمراكش في عصر يوسف بن عبد المومن (الاعلام لعباس المراكشي ج 1 ص 343) .

ومنهم أيضا أبو الوليد بن رشد الذي تميز في الطب وله كتاب الكليات الذي ترجم الى اللاتينية وطبع ولما الف كتابه هذا قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الامور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب وكان مكينا عند المنصور ثم الناصر وقد نقم المنصور على أبي الوليد واجبره على المقام في الليسانة قرب قرطبة وكانت أولا لليهود كما نقم على أبي جعفر الذهبي ومحمد بن ابراهيم قاضي بجاية والكفيف لاشتغالهم بالحكمة ثم رضي عنهم عام 595 هـ وجعل أبا جعفر الذهبي مزوارا للطلبة ومزوارا للاطباء .

وفي نفس السنة توفي أبو الوليد بمراكش وخلف ولدا عالما بالطب اسمه عبد الله وهو طبيب الناصر وقد شرح ابن رشد أرجوزة ابن سينا في الطب .

ولعل الحكمة كانت تشمل في هذا العصر جميع شعب الفلسفة والعلوم الا أن ابن القاضي اكد بعد ذلك أن الحكيم هو عبارة عن الناظر في العيون لا في الابدان لان هذا هو الطبيب (درة الحجال ص 117) .

ولابن رشد تلخيص كتاب العلل والاعراض والتصرف والحميات والادوية المفردة وحيلة البرء .

وكان أكثر تلامذته ـ على ما يقال ـ من اليهود والنصارى وقل من كان يقرأ عليه من المسلمين لرميه بضعف المعتقد وفي هذا الزعم كثير من الايغال .

وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الامراض الرئوية وقد أشار الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 531 من الطبعة الفرنسية) .

وابن رشد هو أول (5) من أشار الى الدورة الدموية وعللها في كتابه الكليات الذي استمد منه ويليام هارفي معظم نظرياته وهناك أطباء آخرون منهم :

أبو الحجاج يوسف بن موراطير طبيب المنصور

(5) ابن النفيس المصري اكتشف الدورة الدموية الصغرى وهي الدورة الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون نشرة المعهد المصري ج 26 عام 1934 ـ بحث بقلم ماكس مايرهوف ص 33) وقد أشار ابن النفيس الى ذلك في «الكتاب الشامل في الطب» الذي كان يحتوي على 300 مجلد وقد أهدى مؤلفه منه 80 مجلدا لمستشفى قلاوون .

والناصر (الذى رافقه الى تونس) والمستنصر وقد مات بالنقرس فى مراكش ومن تلامذته أحمد بن عبد الله الكنبنارى الذى درس الطب على عبد العزيز بن مسلمة الباجى وعندما ألف ابن أبى أصيبعة كتابه كان هو طبيبا فى اشبيلية عند بنى هود .

أبو مروان عبد الملك بن قبلال الغرناطى طبيب المنصور والناصر .

أبو اسحاق ابراهيم الدانى (من بجاية) كان أمين البيمارستان وطبيبه بمراكش حيث توفى فى أيام المستنصر .

وذكر لوكلير أنه كلف بادارة مستشفى الجزيرة الخضراء وخلفه فيه ولده محمد الذى قتل فى غزوة العقاب (ج 2 ص 242) .

أبو يحيى بن قاسم الاشبيلى صاحب خزانة الاشربة والمعاجين وكان والده فى خدمة يوسف وتوفى أبو يحيى بمراكش أيام المستنصر وجعل فى موضعه فى الخزانة ولده (طبقات الاطباء ص 79) .

أبو جعفر أحمد بن حسان الغرناطى طبيب المنصور وهو الذى رافق ابن جبير فى رحلته ودفن بفاس وقد ألف للمنصور كتاب تدبير الصحة وكان ولده أبو العلاء طبيبا للمستنصر .

أبو محمد الشذونى الاشبيلى تلميذ عبد الملك بن زهر كان جيد العلاج وطبيب الناصر .

أبو الحسين بن اسيدون الملقب بالمصدوم تلميذ عبد الملك بن زهر كان دينا شاعرا معتنيا بالطب يطلبه المنصور للعلاج (ص 79) وتلميذه عبد العزيز ابن مسلمة الباجى المعروف بابن الحفيد كان شاعرا وطبيبا للمستنصر .

أبو جعفر بن الغزال طبيب المنصور الذى كان يعتمد عليه فى تركيب الادوية والمعاجين .

أبو بكر بن القاضى بن الحسن الزهرى تلميذ ابن رشد وطبيب أبى على بن عبد المومن صاحب اشبيلية وكان يطب الناس من دون أجرة .

محمد الندرومى (من ندرومة قرب تلمسان) الكومى ولد عام 580 طبيب الناصر والمستنصر وهو الذى اختصر المستصفى للغزالى وهو تلميذ ابن رشد وابن موزاطير وانتقل آخر حياته لخدمة بنى هود ومنهم أبو جعفر أحمد بن سابق تلميذ ابن رشد وطبيب الناصر وابن الجلاء المرسى طبيب المنصور وابو اسحاق ابن طملوس طبيب الناصر وأبو جعفر الذهبى طبيب المنصور والناصر توفى عام 600 عند غزو افريقية (ابن أبى أصيبعة ص 81) .

أبو اسحاق بن الحجر كبير أطباء الرشيد الموحدى (الذيل والتكملة) .

ومن الاطباء الذين عاشوا بالمغرب فى هذا العصر :

أحمد بن مضا اللخمى القرطبى لقى عياضا بسبتة وبمهر فى الطب (الديباج لابن فرحون ص 65).

ابراهيم بن صواف الحجرى الشاطبى تعلم الطب وتصدى للعلاج بطنجة واستقر آخر عمره بفاس وتوفى فى نحو 506 هـ (الجذوة ص 86) .

الطبيب أحمد بن عبد الله بن موسى القيسى الاشبيلى سكن مدينة فاس وتوفى بها عام 571 (الجذوة ص 70) وهو تلميذ ابى بكر بن العربى .

أبو الحسن على بن احمد الشلطيشى الطبيب الشاعر استوطن مراكش وتوفى بها عام 565 أو 566 (الذيل والتكملة) .

على بن عتيق الخزرجى نزيل فاس كان شاعرا ماهرا فى الطب موفق العلاج (الذيل والتكملة) وقد حدث فى بجاية وله تآليف توفى عام 598 هـ (الجذوة ص 306 .

أبو يحيى هانىء بن الحسن اللخمى الغرناطى له مشاركة فى الحديث والاصول والطب تتلمذ لابن فرتون بفاس توفى عام 614 هـ (الجذوة ص 335) .

محمد بن أحمد بن صالح العبدى المغربى له نظر وعناية بصناعة الطب (عيون الانباء لابن أبى أصيبعة 65).

الطبيب الشاعر محمد بن قاسم الانصارى الجيانى سكن بسبتة وفاس وأخذ عن علمائها كأبى القاسم التجيبى (الجذوة ص 192) .

(6) طبعته أخيرا كلية الآداب بالرباط

ومن العائلات التى توارثت الطب بالمغرب الكراميون السملاليون أحفاد أبى بكر بن العربى كما ورد فى «بشارة الزائرين» لداود الكرامى ومعلوم أن الدادسيين يتوارثون طب العيون الى الآن وقد أشار ابن الزيات التادلى فى «التشوف الى رجال التصوف» (مخطوط المكتبة الزبيدية بالرباط ص 130) (6) الى بنى افلاطون كأطباء بمدينة فاس فى عصره والكتاب مصنف عام 617 هـ .

وقد رحل الى المشرق أطباء مغاربة منهم على بن يقظان السبتى الطبيب الشاعر الاديب الذى توجه الى مصر عام 544 ثم الى اليمن والعراق (القفطى ص 160) وكذلك يوسف بن يحيى بن اسحاق السبتى أبو الحجاج نزيل حلب ويعرف فى سبتة بابن سمعون كان طبيبا من أهل فاس وقرأ يوسف الحكمة ببلاده (أى سبتة) فساد فيها (القفطى ص 256) وذكر لوكلير أنه كان طبيب ميمون أمير حلب وطبيب الملك الظاهر وصديقا للقفطى (ج 2 ص 193) .

أبو الحكم عبيد الله بن المظفر البـاهلى المعروف بالمغربى من أهل المرية أديب شاعر ذكر المقرى نقلا عن العماد فى الخريدة أنه كان طبيب المارستان فى معسكر السلطان السلجوقى وقد سكن دمشق (النفح ج 1 ص 391) ثم ذكر (ج 2 ص 655) أن السلطان المشار اليه هو محمد بن شاه وان هذا المارستان كان ينقل على أربعين جملا وقد توفى بدمشق عام 549 هـ .

أبو جعفر عمر بن على القلعى المغربى طبيب ماهر فى الادوية والامراض وعلاجها كتب ملاحظاته على كتب ابن سينا ولد بالمغرب وعاش فى دمشق حيث كان له دكان للعيادة توفى عام 576 هـ (لوكلير 2 ص 40) .

محمد الغسانى الجليانى الحكيم الطبيب نزل بالمدرسة النظامية ببغداد عام 601 بعد مروره على القاهرة وسكناه بدمشق كان يقال له حكيم الزمان وكان يحضر عند السلطان صلاح الدين الايوبى (النفح ج 2 ص 645).

ومعلوم أن صلاح الدين كان له خمسة عشر طبيبا الثلثان منهم يهود او نصارى (لوكلير ج 2 ص 3) .

موسى بن ميمون القرطبى الذى يعتقد اليهود انه لم يظهر عندهم مثله منذ موسى عليه السلام قرأ على أحد تلامذة ابن باجة ولم يتصل لا بابن باجة ولا بابن رشد وقد أظهر الاسلام الى أن بلغ الثلاثين وهو ابان دراسته وفى عام 1160 توجه مع عائلته الى فاس وبعد خمس سنوات نزل فى عكرة ثم مصر حيث استقر بالفسطاط وأصبح من أطباء البلاط أيام صلاح الدين وقد ذكر ابن ابى أصيبعة أنه مهر فى ممارسة الطب بينما أنكر ذلك القفطى وتبعه لوكلير (ج 2 ص 58) .

وقد ألف الرسالة الافضلية للملك الافضل نجل صلاح الدين . أما المستشفيات فمما أنشأه أبو يوسف دار الفرج فى شرقى الجامع المكرم وهو مارستان المرضى يدخل العليل فيه فيعاين ما أعد فيه من المنازل والمياه والرياحين والاطعمة الشهية والاشربة المفوهة ويستطعمها زيسيغها فتنعشه من حينه (الاستبصار فى عجائب الامصار) .

ووصف عبد الواحد المراكشى المستشفى الموحدى بمراكش فقال : « وبنى بمراكش مارستان ما أظن أن فى الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة باعدل موضع فى البلد وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك فى وسط احداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت وأجرى له ثلاثين دينارا فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية وأقام فيه الصيادلة (7) لعمل الاشربة والادهان والاكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقله المريض فان كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وان كان غنيا دفع له ماله .. ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كان من مرض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى أن يستريح أو يموت وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله

---

(7) ذكر البيرونى المعروف عند الاوربيين بـ Maitre Aliboron فى مقدمة كتاب الصيدلة فى الطب ان لفظة الصيدنة بالنون أكثر اشتهارا من الصيدلة باللام (ماكس مايرهوف ـ نشرة المعهد المصرى ج 22 عام 1940) .

يعود المرضى ... ولم يزل مستمرا على هذا الى أن مات (المعجب ص 177) .

وذكر ميى فى كتابه (الموحدون) المؤلف عام 1923 (ص 129) ان هذا المستشفى لا يخلف وراءه مصحات أوربا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس . (Millet = les Almohades)

وذكر الناصرى أن يعقوب المنصور بنى المارستانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الانفاق فى جميع أعماله .

وأبو يوسف المرينى هو الذى صنع المارستانات فى جنوب المغرب للغرباء والمجانين وأجرى عليها النفقات وجميع ما يحتاجون اليه من الاغذية وما يشتهونه من الفواكه وأمر الاطباء بتفقد أحوالهم فى أمورهم ومداواتهم وما يصلح أحوالهم (الذخيرة السنية ص 100) ولم تكد تخلو مدينة من مارستان حتى ذكر مارمول أن شالة نفسها كان بها مستشفى (وصف افريقيا باريس 1667 – ج 2 ص 24) .

وقد لوحظ نفس الازدهار فى افريقية التى انبسط عليها نفوذ المرينيين . فقد نقل لوكلير عن شيربرنو أن الطب الذى ازدهر ازدهارا عابرا بالقيروان فى القرن الرابع قد تألق نجمه فى بجاية فى بعض أيام الحفصيين خلال القرن السابع (ج 2 ص 252) وأشار الى ثمانية من الاطباء من جملتهم أبو العباس أحمد الاصبهانى طبيب اصبهان الذى قضى آخر حياته الطبية بالمغرب .

وممن نبغ فى افريقية فى عهد أبى الحسن الطبيب التونسى محمد القويع الذى درس الطب بالبيمارستان فى دمشق وتوفى عام 738 هـ (النيل 228) .

على أن الطب كان فى افريقية – كما كان فى المغرب – مشاعا بين طبقة وافرة من الفقهاء والمحدثين والادباء .

فهذا مثلا الامام السنوسى سارح البخارى له شرح على رجز ابن سينا فى الطب وله شرح كبير على الحوفية فى الفرائض والحساب ألفه وهو ابن تسعة عشر عاما (النيل ص 353) .

وفى خصوص فاس ذكر على بن ميمون فى تأليف له استطرد فيه الكلام على فاس أنه ما رأى مثلها ومثل علمائها فى حفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والمنطق والتوحيد والبيان والطب وسائر العلوم العقلية .. ما رأى مثلها ومثل علمائها فيما ذكر فى المغرب وتلمسان وبجاية وتونس والشام والحجاز ومصر رأى ذلك كله بالمشاهدة (سلوة الانفاس ج 1 ص 74) .

غير أن ابن خلدون أكد أنه لم يشاهد فى المائة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس لاجل انقطاع ملكة التعليم عنهم (نشر المثانى ج 2 ص 97) .

ولكن حوالى 620 هـ اى بعد مرور بضع سنوات على ظهور المرينيين (عام 613 هـ) تحدث المراكشى صاحب المعجب عن فاس فذكر انها حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة حيث رحل علماء المدينتين ونزل أكثرهم بفاس «وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب» (ص 220) .. (8)

---

(8) أكد ليفي بروفنصال (أنه بفضل ملوك بني مرين لم تكن عاصمة فاس في القرن الرابع عشر الميلادي لتحسد العواصم الاسلامية الاخرى » (هسبريس عام 1952 ص 3) .

وقد اعتبرت فاس من طرف باديا ليلبيش المعروف بعلي باي العباسي بمثابة أثينة افريقيا ومعلوم ان أثينة هي عاصمة الفكر اليوناني كما وصف دلفان في كتابه عن القرويين جامعة فاس بانها أول مدرسة في الدنيا (ص12) .

وذكر الدكتور رينو أن مدينة فاس « مهد الحضارة التي تجلب العلماء والطلبة من العالم أجمع وهي عاصمة أثينة بالنسبة للاسلام حيث كانت تدرس جميع العلوم والفنون والآداب » (الطب القديم بالمغرب ص 77) .

وتحدث دوكامبو عن جامعة القرويين فلاحظ « أنها كانت في العصور الوسطى ملتقى الاجانب من مختلف الجنسيات والاديان » (المغرب المعاصر مملكة تنهار – باريس 1886 ص 12)

وقد اشار كابريال شارمس في كتابه « سفارة الى المغرب » (ص254) الى عصر المجد الذي كان المغرب فيه ملتقى جميع العلوم وجميع الفنون التي تنتشر من هنالك في أوربا . ثم ذكر مدينة فاس التي يرى معظم مسلمي افريقيا أنها أعظم مدينة مقدسة بعد مكة نظرا لاصلها وللدور الذي قامت به في تاريخ الاسلام فقد كانت فاس مركز القوة العربية عندما كان نورها يتألق وحتى عندما أصبحت مراكش عاصمة المغرب السياسية كانت فاس بفضل معاهدها الشهيرة ومساجدها عاصمة الغرب الاسلامي فكريا وأدبيا بل « ان مدارسها كانت طوال مدة مديدة أولى مدارس العالم » (ص 297) وهنا في هذه المدينة « انبثق ما يسمى بالحضارة الغربية التي أشع نورها في اسبانيا فأضاء جوانب أوربا المتوحشة » (ص 298) .

وذكر لوكلير انه منذ اندراس اعلام التدريس فـي قرطبة والقيروان لم يكن لفاس ولا لباقي مدن المغـرب أي نظام مقبول في التعليم (ج I ص 575) .

وقد أكد رينو ان علم الطب كان يدرس في جامعـة القرويين بواسطة كتب ابقراط وجالينوس وديجينوس المعربة الا أن كتب خزانة القرويين اندرس بعضها على يد الاسبان عام 1161 م ولم تعد تـدرس العلـوم والطب رسميا اللهم الا ما كان من دروس يلقيهـا (أطباء) في جوامع العاصمة او بعض زوايا المدن الاخرى (9) حيث يعلقون على المصنفات العربية المخطوطة او المطبوعـة الموجودة في الطب بالمغرب محافظين بذلك على ما يعرفونه من الطب التطبيقي .

والشريف الادريسي مغربي صميم خـلافا للحسن الوزان وهو (ليون الافريقي) الذي يزعم أنـه ولد في صقلية (لوكلير ج 2 ص 65) وقد وهم الوزان حين ذكر انه مات عام 1122 في حين انه انتهى من تأليف النزهة عام 1154 (اى 548 هـ) وذكر الوزان انه ترك عدة أولاد يعيش عقبهم بتونس وفاس حيث يظهر من بينهم دائما أطباء ومن جملة هؤلاء أحمد بن عبد السلام الصقلي الذي ألف كتابا في الطب ويوجد مخطوط منه في مكتبة ليد وقد عاش في تونس في عهد السلطان العالم أبي فارس الذي أسس خزانة عمومية قرب الجامع وتوفي عـام 837 هـ (لوكلير ج 2 ص 70) .

وقد ظهر في العصر المريني بالمغرب أطبـاء منهم : أبو العباس الشريشي السلوي الاصل أخـذ الطب في المشرق عن ابن بنان توفي بالفيوم من مصر عام 641 هـ (الاعلام لعباس المراكشي ج I ص 351) .

محمد بن احمد بـن خليل السكوني ذكـر صاحب الذيل والتكملة انه صنف في الطب والبيطرة وصنعـة ركوب الخيل وتدبير الحروب وتعليم الثقـاف والرمي وسمات الخيـل ودلائل العتاقة وجمع بـين كتابي أبي مروان بن زهر وابنه أبي بكر في الاغذية وأضـاف اليهما فصل الخواص والكليات الواقعـة في تيسير ابن زهر وهو اشبيلي أقـام بمراكش متلبسا بعقـد الشروط توفي سنة 646 هـ (الاعلام ج 3 ص 145) .

أحمد بن علي المليانى المراكشي كاتب شاعر أخـذ بحظ من الطب توفي عام 715 (الجذوة ص 73) وكـان صاحب العلامة بالمغرب (الاعلام ج I ص 373) .

الطبيب أحمد الجذامي نشأ في سبتة بمراكش عام 650 (الاعلام ج I ص 354) .

أبو جمعة علي الجراثحي كان فـي سجن السلطان يوسف بن عبد الحق مع غيره من التلمسانيين . ومنهـم أيضا ابن البنا الازدي المراكشي المتوفى عام 721 أخـذ الطب عن الحكيم المعروف بالمريخ (الجذوة ص 76) .

وأكد رينو في كتابه « الطب القديم بالمغرب » أنـه بعد عصر بني مرين سادت في المغرب الفوضى فأفـل نجم فاس ابان السعديين ولم يذكـر اى طبيب مغربي في المصنفات الكلاسيكية خلال هذه الحقبة من تاريـخ المغرب الى آخر القرن الثامن عشـر حيث لوحظ اسم مصنف «ذهاب الكسوف» الطبيب محمـد بـن عزوز المراكشي الذي اقتبس فصل طب العيون من الكحـال المشرقي علي بن عيسى (الطب القديم بالمغرب ص 75) .

ولكن رينو هذا عاد فأكد في الخطاب الـذي القاه في المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ الطب (طبعة جنيف 1926 ص 3) الفـوضى التي أقحمته فيها حروب آخـر ملوك بني مرين فأعاد ملوك الشرفاء تدريجيا وحـدة البلاد وقد تحدث ليفي بروفنصال في كتابه « مـؤرخو الشرفاء» عن نهضة المغرب من الوجهة الادبية فأكد أن من الغريب أن لا نجد مثل هذه النهضة في العلـوم الطبيـة »

وممن نبغ من الاطباء في هذا العصر عبـد الرحمن سقين القصيري ثم الفاسي المحدث كان مشاركا في الادب والتصوف والطب يقرىء الفية ابـن سينا توفي عـام 956 هـ (النيل ص 153) وكذلك أبـو القاسم الوزيـر الغساني له في الطب موضوعات وشرح على حميـات ابن عزرون وكتاب في الاعشاب اختص من بين الاطباء بسلامة الاعتقاد وله حوالي 960 هـ (الدرة 466) .

---

(9) وورد في الجزء الاول من سلسلـة « مدن المغـرب وقبائله » المتعلق بالرباط وناحيته (ص 32 و 225) أن البوعنانية بسلا كانت مدرسة للطب ونقل ذلك عن الاستقصا غـير أن الاستقصا لم يتعرض لذلك عندما اشار الى هذه المدرسة (ج 2 ص 151) كما أشار نفس المصدر الى عمر بن عربية أستاذ الطب في العهد العلوي .

وأكد القادرى ان له مهارة فى الطب وكان من أطباء السلطان أحمد المنصور الذهبى وأحد خواصه الف كتبا فى الطب منها شرح نظم ابن عزرون فى الحميات و « حديقة الازهار فى شرح ماهية العشب والعقار » واختصره فى جزء صغير وقد ألفه للسلطان المذكور عام 994 هـ (النشرج 2 ص 125) .

وتوجد فى المكتبة الوطنية بالرباط نسخة من « الروض المكنون فى شرح رجز بن عزرون » للغسانى فى 130 ورقة كما يوجد فيها شرح لنفس الارجوزة لابى الفضل محمد العجلانى فى 18 ورقة .

وكانت مكتبة الفرع الاجتماعى بطنجة تحتوى على نسخة مخطوطة بخط المؤلف من كتاب الروض المكنون فى شرح رجز ابن عزرون (أى أبى موسى هارون ابن اسحاق بن عزرون) حول الحميات والقروح وقد كتب هذا المخطوط لخزانة الامير محمد الشيخ المامون وهو مؤرخ ب 18 جمادى الثانية عام 999 هـ . وتوجد شروح أخرى لنفس الرجز منها شرح لابى القاسم محمد ابن يحيى اللمتونى التاشفينى ورجز ابن عزرون نفسه تكميل لارجوزة ابن سينا فى الطب والخط الذى أسهم به الطبيب المغربى فى هذا الشرح هو تعريف المغاربة بنظريات الاقدمين وأطباء العرب فى مختلف أنواع الحميات وهو يحتوى على معلومات تكميلية مفيدة فى العلاج .

أما حديقة الازهار فى شرح ماهية العشب والعقار فقد تم تأليفه فى عام 994 هـ وتوجد نسخة منه فى المكتبة الوطنية بالرباط فى 31 ورقة .

وقد نشر الدكتور رينو فى نشرة معهد الدروس المغربية العليا (ج 18 ص 195) دراسة حول حديقة الازهار ذكر فيها ان هذا الكتاب يمتاز بمنهاجه الواضح جدا فى الوصف النباتى الذى يتسم غالبا بطابع من الاصالة والطرافة وقلما يخلو الكتاب من الاشارة الى منابت الاعشاب التى توجد بالقرب من فاس وبذلك يزودنا بمعلومات ثمينة حول معظم المواد الصيدلية بفاس فهى اذن محاولة مفيدة لترتيب ثلاثى يدخل عنصرا جديدا فى وصف أعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية .

ومن أطباء هذا العصر كذلك :

عبد الوهاب الزقاق الذى كانت له مشاركة فى الادب والاصلين والطب والتفسير والحديث والنحو ولى القضاء والفتوى بفاس (توفى عام 961 هـ) .

طبيب المنصور أبو عبد الله محمد الطيب (نزهة الحادى طبعة هودانس ص 146) وهو الحكيم الماهر أبو عبد الله محمد الطيب الذى أشار له عباس بن ابراهيم فى ترجمة النابغة محمد بن على الهوزالى شاعر المنصور السعدى بمناسبة مرضه واختلال أمره وعلاج الطبيب المذكور اياه .

محمد الاندلسى نزيل مراكش كان مولعا بالكيمياء والرياضيات والطب والهيئة والطبيعة سجن مرتين بعد أن صدر تعنه مقالات شنيعة وأصحابه هم طائفة المحمدية الذين يسمون من خالفهم بالمالكية قتل عام 980 هـ (الاعلام ج 4 ص 318) .

داود بن عبد الله البغدادى ثم التلمسانى الطبيب الماهر كان ضريرا لقيه ابن القاضى فى مصر عام 986 ومعرفته بالطب عظيمة (درة الحجال ص 143) .

عبد الواحد بن عاشر له معرفة بالطب (توفى عام 1040 هـ) .

أحمد بن عبد الحميد المعروف بالمريد المراكشى ذكر صاحب الصفوة أنه كان اماما فى جميع الفنون حكيما ماهرا فى الطب توفى عام 1048 هـ (الاعلام لابن ابراهيم ج 2 ص 114) .

ومن لهم مؤلفات فى الطب من السوسيين حسين الشوشاوى الراسلوادى من أهل القرن التاسع (سوس العالمة للاستاذ الكبير السيد المختار السوسى) .

وكان الطب التقليدى يجرى مع ذلك مجراه الى جانب الطب العلمى التجريبى الذى كان يحمل رايته بعض العلماء وهى ظاهرة لا تزال توجد الى الآن فى المغرب وحتى فى بعض الامم الراقية التى تستند عائلاتها الى تجارب العجائز وقد مرض ولد الكاتب محمد بن على الفشتالى ولم ينجع فيه دواء طبيب فقال له المنصور : «ان امراض الصبيان قلما ينجع فيها الا طب العجائز ولا كعجائز دارنا فابعث من يسألهم» (الاستقصا ج 3 ص 95) .

ومن الاطباء الغربيين المولودين بالمغرب كريسطوف

داكوسطا الطبيب النباتي الذي ولد في سبتة ثم جال في آسيا عام 1578 م (كودار ص 495) .

ويدل على عقم الصيدلة نسبيا في هذه الآونة ما لاحظه الحسن الوزان من أن العقاقريين بفاس في عصره لم يكونوا قادرين على تركيب الاشربة والادهان طبقا لما يصفه الاطباء فكانوا يجتمعون كلهم لتركيبها ثم يرسلونها الى دكاكينهم لتوزيعها حسب الوصفات غير أن هذه الظاهرة الجديدة تنم عن أمانة واخلاص للمهنة وهو شيء مهم جدا اما المستشفيات فقد استمرت في اطارها القديم وأضيف اليها مارستانات قليلة جدا منها ما ذكره اليفرني من أنه في عام 970 انشأ السلطان الغالب بالله بمراكش مع جامع الاشراف بالمواسين والسقاية المارستان « الذي ظهر نفعه ووقف عليه أوقافا عظيمة » وعلق الناصري على ذلك فلاحظ أن هذا المارستان هو الذي بحومة الطالعة قرب السجن وقد اتخذ سجنا للنساء (الاستقصاء ج 3 ص 18) .

كما بنى السعديون للاسارى المسيحيين ـ حسب رواية السفير الانجليزي أدمون هوكان مستشفى قرب أحد جوامع مراكش .

والذي يدل على استمرار الاهتمام بالمارستانات أن الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي والذي تخرج من جامعة القرويين قد تولى خطة العدالة في مارستان المجانين بفاس حيث قضى أربع سنوات كما حكى عن نفسه (ماسينيون : المغرب أول القرن السادس عشر ص 43) .

وفي منتصف القرن الرابع عشر اسس الرهبان الاسبان في فاس ومكناس وسلا وتطوان مستشفيات كانوا يعالجون فيها النصارى والمغاربة معا (رينو 27) .

ورغم ما استظهره رينو من أن التعليم الرسمي للطب والعلوم اندرس بجامعة القرويين أواخر القرن الماضي (الطب القديم بالمغرب ص 77) فان دلفان أشار في كتابه حول فاس وجامعتها (المطبوع عام 1889) الى اعتناء الطلبة بجملة من الكتب الطبية مثل الكامل للرازي والقانون والمنظومة لابن سينا وزبدة الطب للجرجاني والتذكرة للسويدي وتذكرة الانطاكي وكليات ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز للجزائري ابن حمادوش وهو عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمادوش الجزائري حج عام 1130 هـ وأهم مؤلفاته « كشف الرموز في شرح العقاقير والاعشاب » مرتبة على الحروف (تحتوي على نحو الالف عشبة) وهو ينقل عن ابن سينا وابن البيطار والانطاكي وله أيضا «تعديل المزاج بحسب قوانين العلاج» (نحو العشرين صحيفة) .

والمتعاطي الطب في المغرب رغبة في كتابي داود الانطاكي التذكرة والنزهة وقد انتقدهما القادري في نشر المثاني ملاحظا ان الانطاكي اودعهما غثا وسمينا والنزهة في نظره اكثر تحريرا واسلم ايرادا (ج 2 ص 123) وتوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط نسخة مخطوطة من «النزهة المبهجة في تشحيذ الاذهان وتعديل الامزجة» للانطاكي في 190 ورقة .

وقد تضاربت آراء المستشرقين في قيمة الطب بالمغرب في هذا العصر فهذا اركمان يقول في المغرب الحديث عام 1885 (ص 97) بأن الاطباء لا وجود لهم بالمغرب وان الطب تمارسه العجائز والحجامون الذين يعرفون الفصد وجبر الاعضاء المكسورة او الطلبة الذين قضوا بضعة شهور في اوربا وحملوا معهم ادوية يسيئون استعمالها دون ان يعرفوا بالضبط الكمية الصالحة منها للعلاج » .

ولكن رينو الذي يقول ايضا بأن المتطببين المغاربة ليست لهم سوى معلومات غامضة حول اسباب الامراض وخواص الادوية المفردة يعترف بانهم يطبقون بمهارة غالبا بعض عمليات التشريح الصغرى (ص 128) .

وقد تحدث رينو عن اهتمام الاطباء عندنا بالتشريح والعمليات الجراحية فلاحظ ان هذه العمليات لا تتمخض في الغالب عن ذيول مخطرة لندرة الاستعصاءات الناتجة عن التعفن او الاصداد والتقيح ويستعمل الاطباء المغاربة في تضميد القروح الزيت الغليان أو القطران الساخن والحناء والفحم وصمغ الصنوبر لاستئصال جراثيم التعفن (ص 132) وعند حدوث نزيف يستعملون لايقاف الدم الصوفان والمساحيق المستخلصة من اليقطين (القرع الصغيرة) ودقيق الفول واللفافات للضغط فاذا أعياهم الامر حاولوا الالتئام بخياطة حافتي الجرح في شكل منحرف ويلجأون كذلك الى كي العرق اما بقضيب محمى واما بقطعة من خشب محماة ثم يضمد الجرح بالجاوى ويحكى أن القروح تلتئم في حاجا والسوس لا بالخياطة ولكن عن طريق عضة النمل الكبير لحافتي

الجرح بحيث يقطع صدر البعوضة ويبقى الفكان عالقين بالقـــرح .

أما فى جبر الاعضاء المنكسرة فان الاطبـــاء المغاربة يعمدون الى طريقة الدلك الذى سبق به المغاربة ـ كما يقول رينو ـ اكتشاف لوكاس شامبيونيير وكثيرا مـــا يعطى الطبيب لمن كسرت عظامه ايلان وهو حب يكثـر فى ناحية مراكش غنى بمـادتى الفوسفاط وكاربونات الجير ويوقف داء الفتق بآلات من جلد او ثوب محشو بالصوف أما الكى فانه مستعمل فى جميـــع الامـراض الباطنة وفى كثير من العمليات الجراحية (ص I34) .

وتقلع الاسنان المسوسة بأدوات خاصة ذكر رينـــو منها مجموعة بعضها مصنوع فى المغرب وبعضها مجلوب من أوربا ومن الاطباء من يضمخ السن بمركب من الثوم والملح والحريف (وهو الفجـــل الوحشى او الحرف) ثم يملأون السن المسوسة بجذر جوز ريان بعد غمسه فى اللبن ويغطى الكل بالصمغ (I35) .

وتداوى أمراض الاذن بالجاوى والزعفران والـزيت وعصير ناب الذئب أما القروح فانها كثيرا مـــا تداوى بالعمليات الجراحية فى الاذن وهى عمليات خطيرة تكلل بالنجاح بسبب قلة القيوح .

أما العيون فان امراضها تشكل مـــع الزهرى ثلثى أمراض افريقيا الشمالية فما أكثر العميان بالمغرب غير أن للكحالين أى أطباء العيون المغاربة أساليب مفـــيدة لمعالجة أنواع الرمد ولهم فيه مهارة وكذلك فى الجزائر (ص I36) ويستطيعون أن يزيلوا بحذق غشاوة العين المانعة من الابصار بل يتقنون عمليات أصعب من هـــذه (ص I36) .

أما فى التوليد فقد توصل الاطبـــاء ـ لا سيما فى مراكش والدار البيضاء ـ الى اجراء عمليـات جراحيـة لاخراج الجنين (ص I38) .

وذكر الضعيف فى تاريخه أن امرأة جسيمة مرضت بمكناس عام IIOI هـ «فشق طبيب جوفها وأخرج منـــه علة وجد فيها 35 رطلا وعاشت المرأة بعد ذلك سنين» .

وذكر كودار فى (وصف المغرب وتاريخه) (ج I ص 238) ان الكى هو أعظم دواء للجراحات بالمغرب والجزائر وأن هذه العملية اسفرت غالبا عن نتائج عجيبة فقـــد أجريت لجرحى عرب اراد جراحون فرنسيون قطـــع عضوهم المجروح ولكنهم عولجوا بواسطة حديدة محماة .

أما تبنيج المريض أثناء العمليات الجراحية فقد أكـد رينو ان الاطباء المغاربة كانوا يستعملون السيكـــران وهو عشب مخدر وكذلك جوز الطيب فى عملية الختان وقد حكـــى له الطبيب الجراح الحسن أنـه توصل الى تركيب دواء السيكران والكبريت وغيرهما يكون البخار المتصاعد من طبخه بمثابة مخدر يستمر تأثيره أربعـــا وعشرين ساعة وذكر الدكتور ميكيريز فى كتابه الاخبار الصادر عام I859 بالجزائر ان الاطباء المغاربة كـــانوا يستخدمون وسائل الايحاء والتنويم فى معالجة مرضاهم واجراء عمليات جراحية لهم بحيث يتوصلون الى درجات شتى من التنويم ولا تختلف هذه المناهج عن الاساليب المستعملة عند الاوربيين ومنها تعليق زجاجة لامعة مثلا أمام المريض فينام بينما المباخر ترسل روائح العطـــر والعود (رينو ص I3I) .

وقد وصف كودار كذلك فى تاريخ المغرب (ج I ص 240) عمليات التنويم التى أشار اليها الدكتور ميكيريز منها وضع زجاجة فوق طاولة مغطاة بخوان أبيض يتلألأ وراءها مصباح فيجلس المريض على مسافة قريبة مصوبا نظره نحو الضوء فيشعر بتثاقل وبعد بضع دقائق ينام وتتسارع دقات قلبه ويحرق البخور فى الغرفة فيفقـد النائم احساسه .

وذكر رينو أن بعض الاطباء المغاربة كانوا متخصصين بعضهم فى الاوجاع وبعضهم فى أمراض العيون وبعضهم فى الحميات أما أطباء الاسنان فانهم يمارسون هذا الفن ـ فى نظر رينو ـ بمهارة كبرى (ص I22) .

وكثيرا ما تستعمل أعضاء بعض الحيوانات لمعـــالجة الامراض وهذه الطريقة تستعمل كثيرا فى أوربا (رينو ص I55) ولا يجهل المغاربة جدوى اللحوم المطبوخة وقد أشار الشيخ عبد الرزاق صاحب كشف الرمـــوز الى خواص بعض أعضاء الحيوانات منهـا معالجة داء الكلب بمثقال (غرام) من كلية الكلب العقور بمجـــرد قتلـه ويؤيد هذا النوع من العلاج ما ذكره رينو (ص I57) من أن الدكتور فرانتزان نشر بحثا فى « الاسبوع الطبى » (I4 مايه I898) ذكر فيه أن مرارة الكلب العقور تحتوى على مادة مضادة لجراثيم داء الكلب .

ويستعمل الكحالون المغـاربة أعضاء حيوانية خاصـة فى أمراض العيون من ذلك مستخلص الكبـد والاكياس

التى توجد فوق الكليتين والتى استعملها أيضا باطيس فى نيويورك ضد التهاب القرنية والملتحمة وكذلك ضور فى ليون ودرايى فى باريس (رينو ص 160) .

ونشر بنسيمون بحثا حول الطب والاطباء بالمغرب قبل الحماية فى مجلة المغرب الطبى (شتنبر 1951) ذكر فيه أنه يجب أن نلاحظ أن الطب البدائى التقليدى بالمغرب كان يستعمل فى عدة حالات أنواعا من العلاج لم يعد نزاع فى جدواها فمن ذلك ان المريض المصاب بالحصبة أى الحميرة (بوحمرون) كان يجعل فى غرفة يكسى فراشها وجدرانها وأغطيتها بلون أحمر وهذه الطريقة فى العلاج لا يزال يستعملها الدكتور شاطينيير الذى لاحظ أن لها يرجع الفضل فى تخفيف تفجر الحميرة والحمى وتدارك الاستعصاءات .

وقد لاحظ رينو بمزيد الدهشة استعمال المغاربة للتلقيح ضد مرض منتشر عند المعز يعرف بالبيور وهنالك أمراض مجهولة فى المغرب مثل الكزاز (تيتانوس) .

وكثير من الامراض المنتشرة فى أوربا غير معروفة بالمغرب ولا فى الجزائر منها الحمى الوبائية المصحوبة بحبوب صغيرة والحمى الحصبية بينما تقل جدا الاصابات بالدفتيرية او التيفويد (رينو ص 140) .

وقد أصدر السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن ظهيرا خاصا فى 10 رجب 1283 موافق 18 نونبر 1866 جعلت بمقتضاه جزيرة الصويرة محجرا صحيا للحجاج .

وكانت توجد فى كافة مدن المغرب لجنة صحية تتركب من أعيان يهتمون بكل ما يتصل بالصحة العمومية وطهارة المدينة وتموين الاسواق وجلب الماء ومن ممثليها المحتسب الذى يسهر على النظام وتنقية الازقة وتعهد المؤسسات العمومية وكان المخزن يقوم بتطهير بعض الازقة والشوارع خلال الليل وقد حاول فى الصويرة مثلا تنظيم نقل الازبال فجلب من الخارج أول القرن الحالى كناسات ورشاشات ميكانيكية .

فمنذ 1614 م الى الآن أى طوال ثلاثة قرون لم يقع القحط بالمغرب سوى ثماني مرات أى مرة كل خمس وثلاثين سنة تقريبا فى حين توالت المجاعة بين 867 و 1325 ست عشرة مرة (رينو ص 76) .

وكان المخزن يتخذ الاجراآت اللازمة للحيلولة دون انتشار الوباء من الخارج بفضل المحاجر الصحية وفى الداخل بفضل الحصار الضيق الذى يضرب أيام الخطر ففى عام 1089 هـ عندما ظهر الطاعون بمكناس والقصر وقف الحراس من العبيد على مشرع سبو وغيره لايتركون من يرد على فاس ومكناسة وعلى دائرة الملك وقد ظهر بفاس فأمر السلطان بتحريق ما بسوق الخميس (نشر المثانى ج 2 ص 44) .

اما الاطباء الذين نبغوا فى هذا العصر فهم :

الطبيب الشاعر «عبد الوهاب ابن احمد أدراق» الذى انتهت اليه رئاسة الطب وقصرت عليه نفاسته له أنظام كثيرة فى الطب وتآليف منها أرجوزة فى الطب ذيل بها ارجوزة ابن سينا وأرجوزة فى حب الفرنج وكتاب هز السمهرى فيمن نفى عيب الجدرى وتعليق على النزهة للشيخ داود وهو طبيب مولاى اسماعيل توفى عام 1070 هـ (النشر ج 2 ص 251)

وكان لمحمد بن سعيد المرغيشى دراية فى علم الطب ثم تركه بسبب «ان انسانا أتى بالهراقة فيها بول وأدخلها عليه فى المسجد فقال ان علما يؤدى الى أن أكون سببا لدخول المسجد بالنجاسة لا أشتغل به وقد كان مقصودا به قبل ذلك» (توفى عام 1089) (النشر ج 2 ص 37) .

الطبيب الماهر أبو عبد الله أدراق السوسى الفاسى المتوفى عام 1090 هـ عالج من غير تقدم معرفة ثم تدرب وانتفع به خلق كثير وقد ذكر صاحب نشر المثانى أن أقاربه هم المنتصبون فى عصره بفاس للعلاج ولهم مهارة وذوق سليم فى الطب ويتحفظون من العلاج بالمخطر من العقاقير والادوية والامور الشاقة ولم نسمع عن أحد أصابته آفة من علاجهم (ج 1 ص 226) .

أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى كان منفردا بتحقيق التعاليم من هيئة وطب فاق أهل وقته فى ذلك توفى عام 1096 هـ (السلوة ج 1 ص 316) .

ويحتوى كتابه الاقنوم فى مبادئ العلوم على 281 بيتا منظوما سرد فيها العلوم المعروفة فى عصره والعلم فى نظره شعبة من شعب المعرفة الانسانية وقد أفرد الفصلين السادس والعشرين والسابع والعشرين للطب فتحدث عن عمليات التشريح الصغرى وعن فن العلاج

وتحدث في الفصل الاربعين عن البيطرة وفي الفصل الحادي والاربعين عن علم الزردقة وهو طب الحيوان وفي الفصل 19 الى 201 عن الصيدلة . (10)

ويوجد مخطوط من الاقنوم في مجلدين بمكتبة الرباط . وقد أشار ابن شنب في الاجازة الى رجز في الطب من نظم عبد الرحمن الفاسي . كما ذكروا لنفس المؤلف كتابا في (تفسير الاعشاب) .

عبد القادر بن شقرون المكناسي معاصر مولاى اسماعيل وقد نقل عنه محمد الطيب العلمي في الانيس المطرب فيمن لقي من ادباء المغرب فوائد طبية ومن مؤلفاته الارجوزة الشقرونية المؤلفة بطلب من سيدى صالح بن المعطي الشرقي (السلوة ج I ص 97) وهي تحتوي على 700 بيت وطبعت بفاس عام 1324 هـ . كما طبعت بتونس في نفس الوقت وقد ذكر زينو في خطابه المطبوع عام 1926 بعدما حلل مواضيع الشقرونية انها لا تخلو من فوائد وانها اسهام لا باس به من المؤلف في المصطلحات الفنية في قاموس الطب المغربي (ص 5) وتوجد نسخة منها في مكتبة الرباط في 667 بيتا .

أحمد العطار المراكشي ذكر صاحب الصفوة انه عرض عليه القضاء فامتنع وكان عارفا بالطب خبيرا برجز ابن سينا فيه وقال ابن زاكور الفاسي يطلب منه قراءة أرجوزة ابن سينا :

ما ذا على العطار لو اهدى لنا
نفحاته من جونة الارجوزة

توفي عام 1105 هـ (الاعلام ج 2 ص 124) .

محمد بن قاسم بن عبد الواحد ابن أحمد بن زاكور الفاسي المحدث المؤرخ الاصولي له أرجوزة مثل المقنع في فنه والدرة المكنوزة في تذييل الارجوزة يعني أرجوزة ابن سينا في الطب توفي عام 1120 هـ (السلوة ج 3 ص 180) .

أحمد بن محمد السملالي الجزولي كان عارفا بالطب أخذ عن الحكيم عبد الله بن بيوزك الاسغركيسي توفي عام 1152 هـ (الاعلام ج 2 ص 181) .

عبد المجيد الزبادي المنالي الفاسي كانت له مهارة في الطب والعلاج وكان شاعرا توفي عام 1163 هـ .

أحمد أدراق طبيب سيدى محمد بن عبد الله وهو من ذرية الحكيم عبد الوهاب طبيب مولاى اسماعيل (11)

وسليمان الفشتالي قاضي فاس كان متوغلا في العلوم القديمة على طريق أهل الحكمة أخذ عنه مولانا سليمان الحوات الحساب والطب توفي عام 1208 هـ . (السلوة 3 ص 116) .

أحمد بن محمد الكردودي كان له ولوع بالطب معتكفا عليه حتى انه من كثرة انكبابه على التذكرة قيد عليها حواشي كثيرة صحب المعطي الشاوي في سفارته الحسنية لفرنسا والنائب الطريس في السفارة الى البابا ليون الثالث عشر عام 1888 بمناسبة بلوغه خمسين سنة وعبد الصادق الريفي لاسبانيا عام 1302 ألف فيها « التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الاصبنيولية» توفي عام 1318 (الاعلام ج 2 ص 253) .

أحمد بن محمد بن حمدون ابن الحاج الذي تحدث عنه زينو (الخطاب ص 8) كانموذج أخير للطبيب والعالم العربي الكامل وله مؤلف اسمه الدرر الطبية المهداة للحضرة الحسنية في ثلاثة أجزاء (يوجد الجزء الاول في المكتبة الوطنية بالرباط في 402 صحيفة) والقسم الاول من الجزء الاول خاص بمبادىء الطب والطبائع والثاني في ضروريات الحياة (الهواء والاغذية والاشربة) والثالث في الادوية المفردة والجزء الثاني في الامراض وطرق علاجها والثالث في الخواص الطبية لبعض الاسماء. وقد ذكر زينو أن ابن الحاج يعطينا للمرة الاولى في تاريخ المغرب تقسيما فنيا للادوية وقد توفي عام 1316 هـ (الاعلام ج 2 ص 246) .

محمد فتحا غريط الكاتب الطبيب الماهر (الاعلام ج 5 ص 313) وهو غير غريط الوزير (ص 320) .

ابراهيم بن أبي سعيد العلوي المغربي تحدث حاجي خليفة عن كتابه تقويم المفردات (رقم 3490) وعصر حياته مجهول .

---

(10) علم أعمار العقار وابدالها وقوى العقاقير وعلم الاقراباذين (ج 2 من المجلدين الموجودين بمكتبة الرباط) .

(11) جوزيف كاسطيل الفرنسي أصله من تولوز كان طبيبا جراحيا في احدى البواخر التابعة للشركة الهندية فأسر ونقل الى سلا ثم الى مكناس وأصبح جراحا في جيش مولاى اسماعيل (رحلة مويط ص 126) .

وذكر رينو انه لقى بالصويرة طبيبا يسمى الحاج الحسن قام بعملية جراحية شرح فيها صدر أحد المرضى (ص I22) .

عبد السلام العلمى كان من حاشية سيدى محمد ابن عبد الرحمن ومولاى الحسن الذى بعثه لدراسة الطب بالقاهرة وله كتاب سماه ضياء النبراس وارد فيه أسماء أساتذة المسلمين والاجانب فى الاسبطالية الكبرى بالقصر العينى الذى أسسه عام I827 الدكتور كلوط (كلوطباى) . بأمر من الخديوى محمد على (خطاب رينو ص6) وقد ذكر الطبيب المغربي في كتابه النبراس أنه عندما كان طالبا فى مصر عام I29I هـ (الضياء ص 59) فكر فى تاليف كتاب موسوم بالاسرار المحكمة فى حل رموز الكتب المترجمة لتفسير المصطلحات الفنية فى العلوم العصرية الدخيلة فى العربية وأنه اقتصر موقتا على تصنيف مختصر لشرح تذكرة داود الانطاكى وهو « ضياء النبراس فى حل مفردات الانطاكى بلغة فاس» وقد طبع بفاس عام I3I8 هـ . وقد علق رينو على هذا الكتاب فلاحظ أن المؤلف يعطينا مفردات بربرية مرادفة للمصطلحات الطبية العربية .

وهذا الكتاب متين التحليل ويعتبر فى نظرى نقطة تحول مهمة فى تاريخ الطب المغربى حيث يحاول المؤلف التوفيق بين الشهور والبروج والادوية وأنواع النباتات المتداولة فى الشرق والغرب وفى المغرب مصححا فى بعض الاحيان أغلاط سلفه ومنظرا بين المصادر المطبوعة ودروسه فى مصر وتقاليد أطباء المغرب وصيادلته وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء الجديدة بأوربا وأمريكا ويأتى أحيانا بأسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها ثم باللاتينية والافرنجية مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة العامة كالتصعيد والتقطير وقد نقل من مصر نماذج عديدة من النباتات والعقاقير والادوية ويحكى عن تجارب شيوخه فى قصر العينى واسهامه الشخصى فى هذه التجارب وقد ذكر أنه شاهد زرافة مصبرة بالقصر العينى خلال قراءته علم الحيوانات (الضياء ص 57) وشارك فى تحضيرات بالمعمل الكيماوى بمصر (ص 72) .

وقد نقل عن نحو الخمسين مؤلفا منهم ابن الخطيب (ص 80) والوزير الغسانى صاحب الحديقة وعبد الرحمن الفاسى (ص 86) وعبد القادر ابن شقرون والطبيب الصيدلى العجلانى (ص 80) والطبيب المصرى أحمد بن حسين الرشيدى الذى عاش أول القرن الماضى وصاحب « عمدة المحتاج فى علمى الادوية والعلاج » وبقلاوش وهو طبيب يهودى سرقوسى ينقل عنه كثيرا وأبو جعفر أحمد بن ابى عبد الله ابن الحشاء صاحب تفسير الالفاظ الطبية واللغوية الواقعة فى الكتاب المنصورى (I2) (ص II2) وصاحب «الدر اللامع» .

وقد ذكر رينو أن الطبيب مولاى عبد السلام العلمى هذا أسس مصحة صغيرة قرب الحرم الادريسى بفاس ثم مرض ولكنه انكب مع ذلك طوال I8 سنة على اتمام كتابه الضياء حتى توفى عام I323 هـ .

وقد أشار العلمى فى الضياء (ص II5) الى انه نظم منظومة سماها « مفتاح التشريح » كما رتب تذكرة الانطاكى على الامراض بدلا من الحروف ليسهل الفحص على من يطلب علاج مرض مخصوص وشرح آخر الضياء مفردات كنوز الصحة حسبما حرره فى الاسبطالية المصرية وعالج به بعض الامراض وهذه الرسالة مشحونة بالاصطلاحات الحديثة ووصف العمليات العلمية مثال ذلك أسلوب تقطير مخلوط النوشادر بجهاز ولف الذى رسم له صورة حية :

وفى الختام سرد أسماء شيوخه بالقصر العينى منهم رئيس الاسبطالية وشيخه فى الجراحة محمد (فتحا) على باشا وشيوخه فى الامراض الباطنية على سرر المرضى وفى علم التشريح الهيكلى والعضلى والمفصلى وفى التشريح الطبيعى والكيمياء الطبية والاقرباذين (الصيدلة) وطب الرمد والامراض الجلدية والداء الزهرى وعلم الحيوانات المصبرة واحجار المعادن وأمراض النساء والاطفال (فى اسبطالية أمراض النساء بمصر) .

وأبو الفضل محمد العجلانى المذكور له تحفة الاريب عند من لا يحضره الطبيب اشار اليه لوكلير (ج 2 ص 3I7) ولم يذكر أن له كتاب الاشربة والمعاجين وتركيب الادوية وشرحا على أرجوزة ابن عزرون وكلاهما مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط .

---

(12) الموسوم (مفيد العلوم ومبيد الهموم» الذى نشره عام 1941 معهد الدروس العليا المغربية .

وقد أشار رينو الى اجتماع عقده اربعة من علماء فاس في 8 شوال 1310 لامتحان طبيب مغربي فشهدوا بعد استفساره بتضلعه في الطب وقوانينه وتطبيقاته ومعرفته بتركيب الادوية وتقاسيم الشرايين ووظائفها وعددها وعدد العظام وتمييزه بين أنواع العصب والعضلات في الجسم ومعرفة النباتات والازهار والاعشاب الطبية وخواصها واسمائها وطرق اذابتها في الوقت الصالح والاوقات المناسبة لوصفها للمرضى وبعد المداولة بين العلماء خولوا للطبيب اجازة (ص 121) .

وعند تعرض رينو للحاج الحسن الذى لقيه بالصويرة ذكر انه قرأ الطب في تانكزونت بسوس حيث كان معه نحو الخمسين طالبا غير ان هذه التعاليم نظرية فلا علاج للمرضى ولا تشريح وانما تحفظ الدروس حفظا (ص 117) .

وذكر الاستاذ محمد المختار السوسي في الجزء الاول من كتابه القيم « سوس العالمة » جملة من الاطباء السوسيين الذين لهم مؤلفات في الطب فعلاوة على حسين الشوشاوى الراسلوادى الذى هو من اهل القرن التاسع أحمد بن عبد الله بن يعقوب السملالى ومحمد بن أحمد السوق الحامدى له كتاب في الطب ومحمد بن على البعقيلى صاحب « الطب البعقيلى » الشهير وتاليف طبي آخر لمحمد بن يحيى الازريفي ومن الاطباء أحمد بن الشيخ الحضيكى حافظ تذكرة الانطاكى وكتاب الزهراوى (انظر الحضيكيون للجيشتيمى) وكان يسردهما من حفظه في دروسه الطبية حيث كان يعلق على شرح ابن رشد لمؤلف ابن سينا ومنهم أحمد التهالى الذى مهر في الطب وامتاز فيه بين معاصريه كابن الحضيكى وكلاهما أدرك اول القرن الثالث عشر «ثم انطوى الفن ولم نر له ذكرا في التدريس او في التاليف» ـ كما يقول الاستاذ ـ اللهم الا بعض المتطببين كابنا محمد بن سعيد الكرامى من أهل مختتم القرن التاسع والحاج ياسين الوسخينى والشيخ الحاج على الدرقاوى الالغى والحاج عبلا الالغى (13)

وقد استنتج لوكلير من امثال الطبيب ابن عزوز المراكشي وجود مصنفات في الطب العربى بالمغرب (ج 2 ص 308) وابن عزوز هذا هو عبد الله المراكشى المعروف بسيدى بلة وهو صاحب «ذهاب الكسوف ونفى الظلمات في علم الطب والطبائع والحكمة» توجد نسخة مخطوطة منه في المكتبة الوطنية بالرباط وقد ترجمه لوكلير الى الفرنسية وهو ملء بالمسائل النظرية وله ترتيب غريب (العموميات ثم العلوم الطبيعية ثم حفظ الصحة ثم الامراض ثم دراسة مفصلة لامراض العين نقلا عن مذكرات حسين بن على (لوكلير ج 2 ص 307) .

والدولة العلوية أول من اعتنى بالبعثات الطبية فقد وجه السلطان مولاى الحسن عددا من الشبان المغاربة لدراسة الطب في أوربا فتتبع ستة منهم تمرينا في المستشفى الاسبانى بطنجة في ميدان الفحص والتضميد والتشريح البسيط وقد ذكر رينو ان ثلاثة من هؤلاء الاطباء المغاربة كانوا يعملون في طنجة ومراكش في الجيش وقد استفاد الناس من تجاربهم (ص 60) .

وهكذا يتجلى لنا من هذا العرض الموجز ان المغرب أسهم بحظ وافر في وضع أسس فن الطب أيام المرابطين والموحدين غير أن هذا الفن وكذلك غيره من التعاليم والعلوم والفلسفة بدأ يتقلص في عهد المرينيين ثم الشرفاء بسبب الاضطرابات والازمات المتوالية وبالاخص من جراء الذبول الذى لحق معالم الحضارة العربية عموما والمغربية خصوصا ولكن هذا لا ينقص من قيمة التراث المغربي الثمين الذى يعد لبنة اساسية في مقومات الحضارة الانسانية .

عبد العزيز بنعبد الله

---

(13) للشيخ ما العينين الشنجيطى دفين تيزنيت (1246ـ1328) (منظومة في علم الطب) أودع فيها تدبير الانسان من صبوته الى شيخوخته و (شفاء الانفاس فيما ينفع الاسنان وخصوصا الاضراس) نسبهما له حفيده ابن بنته العلامة الشاعر الفحل ما العينين بن العتيق الشنجيطى دفين مراكش في كتابه سحر البيان في شمائل شيخنا الشيخ ما العينين الحسان في الباب الثاني منه ، وهو مصور على الشريط بالمكتبة العامة بالرباط على مبيضة المؤلف .